البحوث الإنسانية والاجتماعية بين الموضوعية والذاتية

ـ البحث التاريخي أنموذجا ـ

د/ الحواس غربي

جامعة 8ماي1945–الجزائر

gharbi.elhaouas@univ-guelma.dz

أ/ يزير جمال، أ/ لخضر سلالي

المركز الجامعي أفلو ـ الجزائر

الملخص:

يُعتبر ظهور العلوم الإنسانية والاجتماعية كمحاولة للتحرر من سيطرة الفلسفة ومنهجها في الفكر والبحث الإنساني، لذلك اتجهت هذه العلوم ورغم حداثة تأسيسها إلى اعتماد المنهج العلمي في دراساتها وبحوثها.

وبما أن البحوث الإنسانية والاجتماعية تأثرت بظهور المنهج العلمي، أخذت على عاتقها تطوير نظرياتها ومبادئها ومفاهيمها لأجل الارتقاء إلى مصاف العلوم التي تتصف بالعلمية، ومن هذا المنطلق يحاول هذا البحث مقاربة هذه الإشكالية القديمة والمتجددة دوما ـ وفق رؤية وصفية نقدية وتاريخية ـ لا سيما أن قضية العلمية تكشف لنا عن أول مشكل يواجه البحث التاريخي على وجه الخصوص، هو ذلك التضارب أو التضاد أثناء التعامل مع أي ظاهرة تاريخية ، والذي يخص (الموضوعية) و (الذاتية) ؛ إذ يشير مصطلح الموضوعية إلى إبعاد وعزل الذات عند البحث في الأحداث والظواهر التاريخية المتعلقة بالماضي ، في حين يشير مصطلح الذاتية إلى التدخل المقصود أو غير المقصود لذات الباحث، ومنه كيف يمكن الفصل بينهما ؟ وكيف يتم عزل الذات أثناء البحث ودراسة الأحداث والظواهر التاريخية؟

الكلمات المفتاحية: العلوم الإنسانية ـ العلوم الاجتماعية ـ الموضوعية ـ الذاتية.

مقدمة:

شهدت العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ بزوغ فجرها كعلوم استقلت عن الفلسفة (أو تحاول ذلك) إشكالات تتعلق بمواضيع بحثها والمناهج المتبعة في دراسة الظواهر النوعية والفريدة التي تختص ببحث فيها، وكذا العلاقة التي تربط الباحث وموضوع دراسته، فهذه المسائل وغيرها جعلت المفكرين والفلاسفة يدخلون في جدل علمي، نرى أنه انطلق أولا من المناهج المتبعة في دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية، فتعددت الرؤى حول مدى ملاءمة هذا المنهج أو ذاك، ولكل أسبابه ومبرراته، إذ نجد تيارين بارزين في هذه الزاوية المتعلقة بالمنهج الأنسب لهاته العلوم:

الأول يرى أنه لا مناص من تطبيق منهج العلوم الطبيعية (المنهج التجريبي) في البحوث الإنسانية والاجتماعية، فاعتمدت منهجا كميا في دراسة الظواهر الاجتماعية وإخضاعها لكافة شروط الوضعي من حتمية وعلية (سببية) قصد بلوغ صفة ومستوى العلمية.

أما التيار الثاني يرى أنه لا ضرورة لإتباع منهج العلوم الطبيعية والاحتذاء بها، بل يكتفي بالسعي إلى بلوغ مستوى تلك العلوم الدقيقة ولكن بما يتناسب مع تفرد الظاهرة الاجتماعية وخصوصياتها، فإذا كان الكشف والوصف في العلوم الإنسانية يعتبر أسمى درجة يمكن الوصول إليها لعلنا نجد أن التفسيرات المتكاملة هي صفة العلوم الطبيعية لوحدها، وعليه يمكن اعتماد المنهج الكيفي (كبديل ـ أو مكمل) للمنهج الكمي في تفسير النتائج الإحصائية (العددية) المتوصل إليها من خلال وسائل القياس الكمية الممكن تطبيقها من أجل تحصيل المعلومات والبيانات لإثبات أو نفي الحقائق العلمية.

هذا وكما أسلفنا في بداية هذا التقديم أن البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية يصادف عقبة أخرى تتمثل في علاقة الباحث بموضوع بحثه، والذي يتمخض عنه جدل لا متناهي يخص مدى موضوعية الباحث (حياده) في مقابل ذاتيته وشخصه كفرد في مجتمع يعيش فيه ويتفاعل مع أفراده وثقافاتهم على اختلافها، وهو في ذات الوقت يكون باحثا عن حقيقة بعض الظواهر الإنسانية والوقائع التاريخية مؤثرا ومتأثرا بالإيديولوجيات والقيم والسياسات المتبعة في مجتمعه من جهة ، وإن صح القول محاولة التخلص منها والحياد أخلاقيا وقيميا وإيديولوجيا عنها، أو الانحياز لعقيدة فكرية ما والتعصب لها وصبغ الظواهر المدروسة بصبغة معينة من جهة أخرى.

وبالرجوع إلى موضوع الظواهر الاجتماعية وتفردها مقارنة بالظواهر الطبيعية ، نجدها تدفع بنا إلى التساؤل عن مدى صلاحيتها للبحث بالطرق التجريبية (العلمية الدقيقة) والتي ليس لها علاقة لغة البحث أو نتائجها، بل بأهدافها وأسلوب تحقيقها الملتزم بالمواجهة مع الواقع التجريبي ؛ لتبرز لدينا فكرة اختيار واصطفاء الظاهرة المدروسة أو الواقعة التاريخية (على وجه التخصيص) فنجد الباحث (المؤرخ) يقع منذ البداية بين ثنائية الموضوعية والذاتية بدءا من اختياره للواقعة التاريخية، ليستمر معه في جميع مراحل بحثه، مرورا بالوصف والكشف والنقد ومحاولة الوصول إلى أحكام إحتمالية، والتي قد تسمى أسباب احتمالية، لأن المؤرخ يعيش بعد الأحداث التي وقعت وعليه أن يصعد من الآثار إلى الأسباب (من النتائج إلى أسبابها)، ومنه تتبادر إلى أذهاننا مجموعة من الأسئلة:

- ما مدى اقتراب العلوم الإنسانية و الاجتماعية من صفة العلمية؟
- ما طبيعة الحقيقة التاريخية؟
- ما مدى موضوعية الحقيقة التاريخية وبعدها عن الانحياز؟
- كيف للباحث الالتزام بالموضوعية والحياد والابتعاد عن الذاتية في البحث التاريخي وفي العلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل عام؟

I ـ تحديد المصطلحات :

أ / الموضوعية :

تشير إلى الالتزام بالموضوع مثار النظر، وتتناوله بالبحث والدراسة بعيدا عن تطلعاتنا وتحيزاتنا وآرائنا المسبقة ورغباتنا، ومن ثم في ترادف (الحياد) وتقابل (الذاتية) وتعبر عن القدرة على استبعاد المشاعر والعواطف عند تناول الوقائع وتفسيرها وعدم اصدار احكام أخلاقية او قيمية بشأنها.[1]

وتعرف على أنها " معالجة الظواهر باعتبارها أشياء لها وجود خارجي مستقل عن وجود الإنسان، والشيء الموضوعي هو ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد الملاحظين مهما اختلفت الزاوية التي يلاحظون منها، والباحث الذي يتحرى الموضوعية في الدراسة يتناول الظاهرة كما هي وفي صورتها الواقعية، الحياد التام وعدم التحيز.[2] كما يعرفها " صلاح قنصوه " بأنها " غياب لكل عوامل التحيز، وكف لتأثيرها ".[3] أمّا "جيبسون " فيعرفها بأنها " ما ينتج عن التأثير المناوئ للاستخدام السليم للشواهد ، والبيانات المتاحة للباحث ، وهو تأثير دوافع الشخص وعرفه وقيمه وموقفه الاجتماعي ، فأن تكون موضوعيا معناه " ألا " تتأثر بدوافعك وعرفك وقيمك وموقفك الاجتماعي.[4]

ويمكن تصور حجم دور مصطلح الموضوعية بالنظر إلى دلالاته بحسب مستويات مختلفة في دائرة الفكر والعلم، وهي:

1. **دلالتها القيمية** : تعد الموضوعية تجردا من كل حكم من الأحكام القيمية .
2. **دلالتها المعرفية** : وهي تتجاوز التعريف التقليدي «معرفة الأشياء كما هي» إلى العناية بالصلة بين الذات العارفة والموضوع المعروف .
3. **دلالتها النفسية** : تعد تمحيصا لأثر العوامل النفسية في تشكيل المعرفة .
4. **دلالتها الثقافية** : التي تشير إلى الاتفاق أو التواضع حول المعايير والتدابير السائدة في المناخ الفكري عند بحث موضوع ما ، والسائد هو ما اتفق عليه المجتمع العلمي في ذاك الوقت.[5]

---

1 محمد حسن الهلالي، وحسن بيقي، **معايير العلمية**، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2015، ص 48.

2 حسني الجبالي، **مناهج البحث في علم النفس: الأسس والمبادئ ـ المناهج والأدوات**، ط1، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 2011، ص 54.

3 صلاح قنصوه، **الموضوعية في العلوم الإنسانية**، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2007، ص 65.

4 صلاح قنصوة، المرجع نفسه، ص65.

5حسن بن محمد حسن الأسمري، "النظريات العلمية الحديثة: مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي في التعامل معها -دراسة نقدية"، مج 2، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، السعودية، ص 857.

ب/ الذاتية:

وتعرف بأنها: " خاصية ما هو ذاتي، ويمكنها أن تشير أيضا للذات نفسها كمفهوم وليس كفرد[6]. كما تقضي بإتباع ميولنا وأهوائنا، مواقفنا الشخصية ورغباتنا الفردية.[7]

غير أنه لا يمكن تحديد وفهم الذاتية في البحث العلمي إلا بردها إلى نقيضتها ألا وهي الموضوعية؛ إذ لم يصل الإنسان إلى إدراك أهمية الموضوعية وضرورتها إلا بعد أن عرف وضع الحدود التي تفصل عالم الذات عن عالم الموضوع، وعدم تصوير الموضوع من خلال الذات بكل ما تحمله من الأهواء والانفعالات والتصورات الوقتية التي ترافق عملية الإدراك في بعض الأحيان، ثم التركيز على فهم الموضوع من غير أن يكون للذات أي دور سوى الفهم والإدراك بعيدا عن الأهواء والميول المتباينة والتصورات[8].

إذ يقول " هوسرل" في هذا الصدد " إن وراء كل تفكير علمي واقعي خبرات ما هوية ذاتية غير تجريبية تكون حدسية وليس استدلالية، إنه القدرة على إيجاد معنى لما يعايشه المرء نفسه أو يعايشه شخص آخر، إنه فعل وليس استبطانا، إنه تأمل انعكاسي يكون محاولة فهم، فهو بمثابة الجهد الفعال لذات شخص يفهم معنى خبرته[9].

ج/ المنهج التاريخي (البحث التاريخي):

ويعرف بأنه " فحص ودراسة التاريخ بهدف تحقيق وتوثيق المعلومات المتصلة بظاهرة أو موضوع معين كمحاولة لتفسير أو تأويل تلك الظاهرة."[10] كما يعرف بأنه "الأبحاث التي تقوم بدراسة الظواهر والأحداث والمواقف التي انتهت منذ زمن بعيد، أي أنها تختص بدراسة الماضي والأحداث التي حدثت فيه، ومن الممكن أن يدرس الظواهر التي تحدث في الحاضر وذلك من خلال الرجوع إلى بداية هذه الظواهر والتطورات التي مرت عليها، بالإضافة إلى العوامل التي كانت السبب في تكوينها بالشكل الحالي. [11]

II ـ صعوبات وتحديات العلوم الإنسانية والاجتماعية في البحث العلمي:

6 محمد حسن الهلالي وحسن بيقي، المرجع سابق، ص45.

7 محمد حسن الهلالي وحسن بيقي، المرجع السابق، ص48.

8 حسني الجبالي، المرجع سابق، ص54.

9 سعيد توفيق، **الخبرة الجمالية**، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ص 2.

10 أحمد الخطيب، **منهج البحث العلمي بين الاتباع والإبداع**، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ص 67.

11 عمر نصر الله، **أساسيات مناهج البحث العلمي وتطبيقاها**، ط1، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص 74.

أ / موضوع البحث:

تدور معظم الصعاب بموضوع العلوم الإنسانية وهو الإنسان والمجتمع، حول القضية الأساسية القائلة بتفرده، وما يتصل بهذا التفرد من تعقيد وعفوية، وحرية إرادة، وجدة، وسرعة تغير ... وغيرها مما يفضي إلى تعذر استخلاص التعميمات من تقلب سلوكه، والتنبؤ به، وإجراء التجارب عليه وخضوعه للقياس.[12] محاولة التجريد والتعميم وإسقاط خصوصية الظاهرة وتميزها قد ينطوي على تشويه لطبيعتها، ويتصل بهذا ما يسمى بالتغير السهل والسريع للظواهر الإنسانية أو الاجتماعية ، وكل هذا «يجعل الاطراد في مجالها أقل ظهورا منه في الظواهر الطبيعية، ويتعذر معه أن نعزل جانبا من جوانب البحث ـ كما نفعل في العلوم الطبيعية ـ عزلا يمكننا من تتبع ذلك العامل وحده في تكرار وقوعه ن فإذا نحن اضطررنا إلى الاقتصار على مشاهدة الوقائع في حالة تركيبها دون تحليلها إلى عناصرها عنصرا عنصرا، وجدنا تلك الوقائع ذات طابع لا يحتمل لها أن تتكرر تكررا يتيح لنا الفرصة أن نلحظ الاطراد فيها، فعالم الاجتماع مثلا لا يستطيع ـ كما يستطيع زميله العالم الطبيعي ـ أن يعيد الظاهرة التي هي موضوع بحثه، كلما أراد أن يخضعها للمشاهدة، لأن الظواهر الاجتماعية فريدة من نوعها، تجئ كل ظاهرة منها مرة واحدة، ثم تمضي فتصبح حادثة تاريخية لا يتكرر حدوثها » كل هذا الفوارق بين العلوم الإنسانية والطبيعية، تثير الشك في إمكان وجود قوانين تحكم ظواهر العلوم الإنسانية .[13]

ويضاف إلى ذلك اصطباغ تحليلات هذه العلوم بالطابع الكيفي الذي يتعذر إخضاعه للتكميم والقياس، وتعد التفسيرات الغائية والتحليلات الكيفية عقبات رئيسية في طريق صوغ القوانين العامة في العلوم الإنسانية.[14]

ب/ الباحث:

تنشأ الصعاب المتعلقة بالباحث عن تأثره بالعوامل التي تحرف حكمه على الواقع، وتعوق قدرته على استخلاص النتائج من البيانات والشواهد المتاحة لديه.

ويمكن أن نوجز هذه الصعاب في دوائر أو مستويات ثلاثة رئيسية هي: الذاتية، والقيمة، والإيديولوجية، ففي الذاتية يتقوم موقف الباحث من موضوع دراسته بوصفه فردا وشخصا معينا، بينما يتحدد موقفه في القيمة (أو التقويم) بوصفه ملتزما بمعايير جماعته ومجتمعه، على حين يتعين موقفه في الإيديولوجية بوصفه متوحدا بجماعته متقمصا لمجتمعه. وهذه الدوائر الثلاث ليست في الواقع متخارجة بل هي متداخلة تنفتح الواحدة منها على غيرها وتنساب إليها.

---

12 صلاح قنصوة، المرجع السابق، ص 52.

13 يمنى طريف الخولي، **مشكلة العلوم الإنسانية ـ تقنينها وامكانية حلها** ـ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ص60.

14 صلاح قنصوة، المرجع السابق، ص 56.

غير أننا ومن باب ـ التخصيص والحصر في موضوعنا المتعلق بالموضوعية والذاتية في العلوم الإنسانية والاجتماعية نواصل فيما جاء من كلام "صلاح قنصوه " في الذاتية، حيث تقترن الصعوبة المنهجية المتعلقة بذاتية الباحث وصلته بموضوع بحثه بالمشكلة الإبستمولوجية التقليدية بصدد استقلال موضوع الدراسة وخارجيته بالنسبة للذات العارفة، غير أن هذه المشكلة لا تستوقف الباحث في العلوم الطبيعية قبل المضي إلى بحثه ، فالاعتقاد بواقعية الموضوعات العلمية أو إنكارها ، كما يقول " جيفريز " عالم الفيزياء ، لا يؤثر قليلا أو كثيرا في العلم ، فكل من المثاليين والواقعيين من العلماء ينطلق في الطريق نفسه عندما يتصدون لمادتهم العلمية لأنهم متفقون مع غيرهم في الاستنتاج من معطيات الحس ... ففي البحوث الإنسانية ينبغي أن نميز بين الداخل والخارج فيما يأتيه الإنسان من أفعال ، وحينئذ تنشأ الصعوبة عندما تدرس العقل نفسه، فالبواعث والميول والأهداف والمقاصد ليست من الأمور التي يمكن أن تقض المعاينة الحسية مغاليقها ، والسلوك الخارجي الظاهر هو سلوك هادف ، محصلة ـ بشكل أو بآخر ـ لهذه التفاعلات الذاتية الباطنية ، ولا يمكننا أن نلم بها إلا بتوسط من خبرتنا الذاتية ، وقد يعني هذا أن نفترض سلفا الألفة بالبواعث والنوايا وسائر مصادر السلوك الإنساني الهادف ، وكذلك الألفة بالغايات والقيم التي يكون بلوغها هو الهدف المعلن أو المضمر لمثل هذا السلوك ، بيد أن هذه الألفة أو التوحد قد يكون عائقا حقيقيا في وجه البحث العلمي فيختلط ما يعرفه الباحث عن نفسه بما يحاول درسه ، كما أن افتقاد الألفة أو العجز عن التوحد قد يحيل موضوع الدراسة الإنساني لغزا مستعصيا على الفهم ، وفي الحالتين لا يؤتي فصل الذات أو عزلها عن الموضوع نتائجه المنهجية الدقيقة التي يمكن أن نقارنها بنتائج العلوم الطبيعية ، وعلى أية حال فإن الصلة بين الباحث (كذات) وبين موضوع بحثه في العلوم الإنسانية صلة لها وضعها الخاص وتأثيرها لا يمكن إغفاله في هذه العلوم .[15]

III ــ الفوارق الموضوعية والمنهجية بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية:

يقدم لنا " محمد امزيان " جملة من الفوارق بين العلمين موضوعيا ومنهجيا، سوف نوردها على ذات التسلسل:

أ / الفوارق الموضوعية (المتعلقة بالموضوع): وهذه الفوارق يمكن أن نجملها في النقط الآتية:

1- **الاختلاف في نوعية العلاقة المنظمة لكل من العلوم الطبيعة والإنسانية:** فالعلاقات التي تنظم ظواهر العالم الطبيعي علاقات علمية آلية، بينما العلاقات الموجودة بين ظواهر العالم الإنساني تخضع للقيمة وترتبط بالهدف والغاية .... فالعلاقات التي تنظم الظواهر الطبيعية تتميز بأنها علاقات سببية وهي تستعمل مصطلحات عددية وقياسية متصلة بالحجم والمسافة ... بينما العلاقات التي تنظم الظواهر الإنسانية علاقات قيمية تستعمل مصطلحات كيفية متصلة بالواجب والغاية والدوافع والأغراض.

2- **الاختلاف في قابلية الإدراك:** فالظواهر الطبيعية تقدم نفسها للباحث كشيء مستقل عنه تتيح له حرية الملاحظة الخارجية باعتبارها ظواهر مادية لها بناء داخلي يغير من شكلها ومظهرها الخارجي ويتفاعل مع المحيط

15صلاح قنصوة، المرجع السابق، ص59-60.

الخارجي الذي توجد فيه (يتعامل الباحث هنا مع هياكل ميتة مجردة من كل شعور أو تجاوب أو تفاعل)، أما الظواهر الإنسانية فدرجة التعقيد فيها أكثر وهي لا تقدم نفسها على نفس الشكل من البساطة وليست هياكل ميتة ومجردة من كل حركة وتتمتع ببناء داخلي خاص ، حيث أن الباحث الذي يتعامل مع الظواهر الإنسانية يجد نفسه داخل نظام من العلاقات والتفاعلات ، وهنا لا تكفي مجرد الملاحظة الخارجية لإدراك حقيقة هذه الظواهر التي يكون فيها الإنسان مؤثرا ومتأثرا في نفس الوقت وله حرية تغيير مظهره وسلوكه الخارجي .

3- **الاختلاف في درجة التعقيد:** فإذا كانت العلوم الطبيعية تتعامل مع ظواهر ذات طبيعة بسيطة التكوين، فإن العلوم الإنسانية تتعامل مع ظواهر معقدة، سواء على مستوى الفرد أو الشخصية الإنسانية في تكوينها الداخلي، وتعقيد على مستوى تفاعل هؤلاء الأفراد والشخصيات فيما بينها وفي طبيعة العلاقات التي تربط بينها، بالإضافة إلى تميزها عن الظواهر الطبيعية بالحركية والتغير وعدم الثبات على حال واحد وعدم التكرار على نفس النمط وفي نفس الشروط الاجتماعية.

ب / الفوارق المنهجية:

1- **الملاحظة الخارجية:** لا تعمق معرفتنا بالظاهرة الإنسانية: إن مجرد الملاحظة الخارجية على العكس منها في دراسة الظواهر الطبيعية لا تعمق معرفتنا بالظواهر الإنسانية لخصوصيتها وعدم انكشافها أمام الملاحظة الخارجية، إن علوم الفيزياء ــ تقول مادلين جرافيتس ــ تطورت بفضل اكتشاف الأدوات المناسبة لنوع الظواهر المشاهدة .... فالوسائل التي يستخدمها المنهج التجريبي في هذا المجال قادرة على اكتشاف عناصر جديدة تعمق معرفتنا العلمية بتلك الظواهر، وهو ما لا نستطيع أن نقوم به في العلوم الإنسانية حيث نقف عند حد معين ومستوى معين من الإدراك الحسي للسلوك الخارجي دون تعمق في فهم دوافع هذا السلوك.

2- **عدم المطابقة بين المنهج والموضوع:** يعتبر هذا الفارق بين الموضوع المدروس والمنهج المستخدم في الدراسة أهم عائق في وجه تطبيق النموذج التجريبي في دراسة العلوم الإنسانية، إذ الاختلاف في الموضوع يستلزم بالضرورة اختلافا في المنهج، فالموضوعات التي يتناولها علم الاجتماع ليست كلها قابلة للملاحظة الخارجية ... حينما يتعلق الأمر بدراسة قضايا العقيدة والإيمان بالله وبعالم الغيب .... وهي قضايا تشكل جزءا هاما من نشاط الإنسان في تفكيره وثقافته وعاداته وتؤثر في توجيه سلوكه وتصرفاته، حينما يتعلق الأمر بالقضايا غير الحسية في حياة الإنسان تعجز الميتودولوجيا الغربية عن استيعاب أبعاده ولا تملك الوسائل العلمية القادرة على اكتشافه باعتباره نظاما خاصا ذا طبيعة مخالفة للنظام المادي الحسي الذي تتعامل معه المناهج التجريبية، وهنا تكمن المفارقة الضخمة بين الموضوع المدروس وبين المنهج المتبع في هذه الدراسة.

3- **تنوع الأساليب العلمية:** حسبنا هنا أن نبين أن النموذج التجريبي ليس النموذج الوحيد الموصل إلى اليقين بشهادة الوضعيين أنفسهم وأن نماذج أخرى لها نفس المستوى من الضبط واليقين العلمي .... إن فكرة العلم متغيرة تاريخية بمعنى أنها حملت دلالات مختلفة بحسب التطورات الثقافية والتغيرات التي حصلت في نظام التفكير، وهذا

يكفي للدلالة على أن الجمود على صيغة معينة للعلمية ليس أمرا إلزاميا و لا مطلوبا ويعني كذلك أنه بإمكاننا أن نبحث عن أنواع متعددة من العلمية تختلف في أساليبها وتتفق في نتائجها اليقينية كـ (المنهج الاستنباطي، المنهج التاريخي، المنهج التجريبي)... ومن هنا تأتي ضرورة إعادة النظر في هذا المفهوم الضيق للعلمية لإعادة الاعتبار لأساليب أخرى قادرة على تخليص المعرفة الاجتماعية من حدود المادية لتستوعب الظواهر الإنسانية في كل أبعادها وتحقق في الوقت نفسه قدرا أكبر من العلمية.

والقاعدة العامة التي نريد أن نصل إليها من هذا التحليل هي أن الموضوعية العلمية ليست قاصرة على الأسلوب التجريبي في حد ذاته والتزام خطواته المنهجية، فكل أسلوب يوصلنا إلى معرفة يقينية يعتبر أسلوبا علميا مهما كان نظامه الاستدلالي مختلفا عن النظام التجريبي.[16]

ومجمل القول فيما يخص البحوث الإنسانية والاجتماعية، أن العالم يسعى قبل كل شيء إلى الموضوعية، فغاية العلم هي تحديد طابع الأشياء لا في علاقتها بنا، بل في علاقتها مع بعضها البعض الآخر .... وليس المقصود بالموضوعية هنا عدم التشويه المتعمد للحقائق فقط، أو العرض المضلل لها بقصد نشر مثل أو مبادئ معينة، وإنما نقصد أيضا تحاشي تأثرنا عن غير عمد أثناء الدراسة، فلا ننقد أو نحكم على المجتمعات الأخرى التي تختلف عن مجتمعنا في الزمان والمكان على أساس القيم والاتجاهات والعقائد السائدة في مجتمعنا .... إن المقصود بالموضوعية هو ألا نكون متحيزين في ملاحظاتنا للظواهر الاجتماعية وترددها، وألا نتأثر بأية ناحية تعصبية دينية أو سياسية أو طبقية.[17]

IV-إبستمولوجيا المعرفة التاريخية وإشكالية الذاتية والموضوعية:

إن طبيعة المعرفة التاريخية القائمة على كونها ماض زال وانتهى تجعل من مجال التاريخ مصبا للعديد من الإشكاليات الإبستمولوجية، خصوصا تلك التي تتعلق بشرطي الموضوعية والذاتية، فالطابع النسبي للأحداث وتضارب الروايات فيها، وتدخل الخلفيات النفسية والاجتماعية والدينية والثقافية والعرقية والإيديولوجية من أكثر الأسباب مدعاة للطعن في مشروعية المعرفة التاريخية دون غيرها من المعارف، وفيما يأتي عرض لطبيعة الحقيقة التاريخية، إضافة إلى آراء أهم المفكرين الذين تناولوا المشكلات الإبستمولوجية لهذه المعرفة.

أ-خصائص الحقائق التاريخية:

تتفرد الحقيقة التاريخية بميزات تجعلها مختلفة عن بقية المعارف في العلوم الأخرى وتتمثل هذه الخصائص في:

---

[16]محمد امزيان، **منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**، ط2، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، السعودية، ص 251-264.

[17]حسن بن محمد حسن الأسمري، المرجع السابق، ص 858 .

1. **عدم التّجانس**: قد يستخرج الباحث من أصل تاريخي واحد حقائق متنوعة وغير متجانسة، عن الخط، وعن اللغة، وعن العقائد، وعن العادات، وعن الحوادث، وعن النظم، هي تحتاج إلى تقسيم إلى أنواع إضافة إلى التّرتيب.
2. **التفاوت في التعميم والتّخصيص**: تبدو الحقائق التاريخية على درجات متفاوتة من التعميم أو التّخصيص، من الحقائق العامة، أو التي دامت لعدة قرون، مثل العقائد والنّظم، إلى الحوادث الخاصة أو الأفعال العابرة الصّادرة عن فرد ما، من حركة أو كلمة. وهذا من أوجه الخلاف بين الحقائق التاريخية وحقائق العلوم الطبيعية. فينبغي على الباحث أن يضع الوقائع المتشابهة في مستوى عمومها أو خصوصها في صعيد واحد، بقدر المستطاع.
3. **التعلق بالزمان والمكان**: تتحدد الوقائع التاريخية بمكان حدوثها وزمانه. وإذا ألغينا المكان والزّمان بالنسبة لها فقدت مشخّصاتها التّاريخية، ودخلت في نطاق المعلومات الإنسانية العامة مثل (الفولكلور) الذي لا تعرف أصوله على وجه التّحديد، والباحث في التاريخ مضطر إلى أن يدرس الحقائق المتعلقة بالمكان والزمان في العصور المختلفة، كلاّ على حدة.
4. **الشك و المصداقية**: تختلف الرّوايات التاريخية وما تتضمّنه من الحوادث في مدى احتمال الصّدق فيها فتوجد بينها الرّوايات الثابتة، أو المحتملة الصّدق، أو الضّعيفة أو المشكوك في صحّتها، ولعلّ بعضها يشبه الحالات (الإكلينيكية) التي تنشر في المجلات الطبية قبل أن يتمكّن العلماء من البرهنة عليها، حتى تدرج في نطاق الوقائع العلمية الثابتة.

وبهذا نجد أن التركيب أو البناء التّاريخي يتم عن طريق تجمّع أقدار من الحقائق، المشتملة بدورها على كثير من الجزئيات التفصيلية المتنوعة، والتي تتشابه أو تختلف أو تتفاوت من حيث موضوعها ومدلولها، ومن حيث درجة عموميتها أو تخصيصها، وفي مستوى تشككها أو ثبوتها.[18]

ب-بعض التّصورات النظرية حول طبيعة الحقيقة التاريخية بين الذاتية و الموضوعية:

نظرا لطبيعة الحقيقة التاريخية وتعقّدها نلاحظ أن التّصورات حولها تتعدد وتختلف من مفكر لآخر، وذلك حسب المشرب النظري وزاوية النظر الخاصة بكل واحد، وبناء على هذا اخترنا بعض العلماء البارزين في هذا الموضوع:

1. **جولد توزر**:

يرى (جولد توزر) إن عمل المؤرخ لا يخرج عن كونه اختيارا للأحداث التي يريد الحديث عنها، ولا يمكن أن تنفصل نظرته عمّا يختاره من أحداث، فنظرته إليها تؤثر على اختياره إياها ولو تأثيرا جزئيا وعندما يقول لنا المؤرخون إنّهم مجرد ساردين للأحداث، وأنّ الحقائق التاريخية تتكلم عن نفسها فإنهم بكل بساطة لا يخدعون سوى أنفسهم،

[18] قاسم يزبك، **التاريخ ومنهج الباحث التاريخين**، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990، ص 48.

فالحقائق لا تتحدث عن نفسها ولكن المؤرخ هو الذي يتكلم عنها، وإن الذي تعبر عنه هذه الحقائق إنما يعتمد على سحر عصاه.[19]

2. لنغلو وسينيوبو:

ويشيران إلى عدم قدرة البحث التاريخي على الوصول إلى تأسيس طريقة علمية. في نظرهما أنّ المؤرخ مهما جمع من بقايا الأحداث المبعثرة في مصادره، ومهما استعمل من وسائل علمية في بحثه، واستعان بمناهج العلوم الأخرى، فهو بحاجة إلى خيال خلاّق في تصوّره أحداث الماضي و تأويلها، ويتجلى التخيل عند المؤرخ في مرحلة جمع الحقائق التاريخية واستخراج مركّب تاريخي ذي معنى، في هذه المرحلة، يفترض المؤرخ أنّ للأحداث أسبابا كانت قائمة في الماضي، لها أبعاد اجتماعية وفكرية وثقافية، ولأن المؤرخ لا يستطيع أن يعود إلى الماضي، يلجأ إلى الخيال في فرز حقائقه التّاريخية، ثم دمجها بحسب أنساق معروفة له من تجاربه في الحاضر.[20]

3. تشارلز بيكرو كارل بيرد:

وفي معرض تناولهما موضوعية الكتابة التاريخية، حيث وضعا مرحلة استخراج المركب التاريخي على محك النّقد، مشددين على أنّ كل مركب تاريخي خاضع لعملية انتقائية ومنظمة للأحداث على شكل بناء تاريخي، ليس هذا البناء جزءا من واقع ما حدث في الماضي وحقيقته، بل من صنع المؤرخ المتأثر بقضايا حاضره وبتوجّهاته وآرائه المسبقة، فالحقائق التاريخية موجودة في الحاضر، وفي عقل المؤرخ لا في الماضي.[21]

4. ماكس فيبر:

إن ذاتية الاصطفاء وموضوعية العلاقات هي الأفكار الموجّهة لمنطق (فيبر)، فنراه يكثر الحجج المعدة للبرهان على القضايا الآتية: (ما من حاجة يجب أن يهمل، وكل شيء يتعلق بإرادة حرة هي إرادة المؤرخ). ويبدو أنّ نقطة البدء لدى (فيبر)، هي مثل التي كانت لدى ريك ريكيرت. فكلا الاثنين يؤكدان لانهائية العالم المحسوس، ولكن (فيبر)

---

19 هاري إلمر بارنز، **تاريخ الكتابة التاريخية**، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، ج2، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص 88.

20ماضي قيس فرو، **المعرفة التاريخية في الغرب**، ط1، مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013، الدوحة، ص 20.

21 ماضي قيس فرو، المرجع السابق، ص 23.

22 ريمون آرون، **فلسفة التاريخ النقدية – بحث في النظرية الألمانية للتاريخ**، ترجمة: حافظ الجمالي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1999، ص229.

23 ريمون ارون، المرجع نفسه، 235.

يؤكد دوما على اللامتناهي الشديد، وهو أقل تفكيرا باستحالة استعراض سلسلة كاملة من الأحداث في الزمان والمكان.[22]

وهكذا ندرك أن (فيبر) يتحدث دوما عن قيمنا لا عن قيم العصر المدروس، أو الفترة التاريخية المدروسة، ويقوم أصل التباين على التّضاد بين المقاصد الاخيرة، وبين موضوعية الاصطفاء أو ذاتيته، وليست النسبة إلى القيم إلا اسما آخر أعطاه (فيبر) لواقع الاهتمام التاريخي نفسه، أو ما يعبر عنه أحيانا باسم القضايا التي يطرحها عصر ما على ماضيه.

إن علم الماضي يتغيّر بتغيّر التاريخ نفسه. كما أن ذاتية الاختيار تعبّر في الواقع عن لا نهائية الفضول التاريخي[23]. وبهذا فهو فإنّ ماكس فيبر يفسح مجالا للذاتية والموضوعية معا، أي لإرادة المؤرخ، وضرورة الأشياء.

5. بول ريكور:

نصادف طرحا آخر يحاول إضفاء المشروعية العلمية على التاريخ عند (بول ريكور) الذي يؤكّد على الخصوصية التي تطبع المعرفة التاريخية، بوصفها معرفة لا تنصب على معطيات جاهزة مثل العلوم الطبيعية هي معرفة يتم بناؤها اعتمادا على منهج خاص يقوم على استنطاق مخلفات الماضي وتحويلها إلى وثائق دالة، من خلال الملاحظة والنقد، وهذه الممارسة المنهجية لا تختلف من حيث قيمتها، عن المنهج المعتمد في العلوم الحقة، مع تميزها بخصوصية.

أما عن الموضوعية المتوخاة في المعرفة العلمية، فيؤكد (بول ريكور) على أن خصوصية موضوع التاريخ ومنهجه تقتضي النظر إلى المعرفة التاريخية من خلال معيار لا يخضع بشكل مطلق للمعنى المتعارف عليه في العلوم الطبيعية حول مبدأ الموضوعية، حيث يقول: "إن التاريخ هو تاريخ البشرية، وبهذا المعنى هو تاريخ عالمي للشعوب، وتصبح الإنسانية في آن واحد الموضوع الشامل والفاعل الوحيد للتاريخ، وفي الوقت عينه يتحول التاريخ إلى جماعي فردي. وتحافظ كل من الذات والآخر على هويتهما الخاصة ولن تفقدها داخل الحركية المتسارعة للتاريخ."[24]

كما يؤكد: لا يمكن للمؤرخ أن يصل إلى موضوعية العالم الطبيعي، كما لا يمكن أن يتخلّص من ذاتيته التي تظل حاضرة بقوة في سردسته من حيث كون الكتابة التاريخية ضربا من تأكيد الانتماء والانفتاح والتواصل مع الغير عبر قناة الماضي، إلاّ أنّ النزوع المنهجي للمؤرخ يحول ذاتيته إلى (ذاتية تأملية) رصينة تتحرى الدقة والموضوعية وتوقعات القارئ.[25]

---

24 العربي ميلود، "الذات والغيرية في فلسفة بول ريكور"، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم الفلسفة، جامعة وهران، الجزائر، 2011، ص 191-192.

25 عبد الله السيد ولد أباه، ''التاريخ والحقيقة لدى بول ريكور''، مجلة يتفكرون، العدد 3، 2014، ص 10.

26 سمير جوّاق، ''نقد الوعي التارخي الشائع، أو الفهم المغترب في العلوم الإنسانية''، مجلة مؤمنون بلاحدود للدراسات والأبحاث ، المغرب، 2016، ص 3.

إذن فالمعرفة التاريخية عند(ريكور) لا تخلو من الذاتية التي تتمثل في ترجيح المؤرخ لعامل مفسر على آخر، ومن ثم، بدل التمسك بمطلب الموضوعية التّامة التي تضفي على المعرفة سمة الإطلاق، ينبغي اعتبار المعرفة التاريخية نسبية يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي، والمعرفة التاريخية ينبغي لها أن تنصرف عن البحث في الموضوعية إلى البحث عن ذاتية جيدة إيجابية تسعى إلى جعل التاريخ معرفة.

6. **غادامير**: يؤكد (غادامير) على ضرورة إعادة النظر لبنية الفهم بشكل جذري، ذلك أن سعي المدرسة التاريخية وراء مطلب الموضوعية أدّى إلى اغتراب الظاهرة التاريخية. إن كل حديث عن فهم يوصلنا إلى حقيقة موضوعية للتراث والماضي هو مجرّد أوهام لا يمكن تحقيقها، زرعتها المدرسة التاريخية في أذهاننا.[26]

إن الوعي التاريخي بالنسبة إلى (غادامير)، نخطوة جوهرية في حدث الفهم، ومن ثم الأساس الذي تقوم عليه العلوم الإنسانية، و لهذا نجده يعمل في البداية على نقد أساس الوعي التاريخي الشّائع، وذلك من خلال نقد المبادئ التي يقوم عليها، لذلك يعلن غادامير أنّ مهمته تحرير الوعي التاريخي من صبغة نموذج الذاتية، وتخليصه من السّمعة السّيئة التي ألحقتها المدرسة التاريخية، ويقدم نقدا للتاريخية السّاذجة التي ترى أنّه يمكن الوصول إلى معنى الماضي والتراث إذا عدنا إلى عصره ومفاهيمه، وإن قطعنا عن واقعنا وتجردنا من أحكامنا، كما أنه يمكننا إعادة تأسيس الماضي بمعزل عن الحاضر وذلك في محاولة يائسة للحصول على فهم موضوعي للتاريخ27.

وعلى ضوء ما سبق يمكننا القول أن المعرفة التاريخية قد لا تكون تامة وموضوعية، هذا صحيح بالنظر إلى العوائق المنهجية (الموضوعية والذاتية)، غير أن ذلك لا ينفي كونها معرفة لا تخلو من شروط العلمية بالنظر إلى الخصوصية التي تميّز موضوع ومنهج التاريخ.

خاتمة:

لنا أن نتساءل في الأخير حول جدوى المناقشات التقليدية واللامتناهية بخصوص مواقف الفلاسفة والمفكرين والباحثين نحو مدى ملاءمة مناهج البحث للمواضيع المدروسة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، والتي ظلت تتراوح ما بين تيارين بارزين (المادية والروحانية) (العقلانية والتجريبية) وقد يخرج بع حين تيار ثالث متفردا بنموذجه أو يمزج بين التيارين السابقين ، غير أنه لا يفتأ أن يرجع إلى أحد القطبين البارزين ؛ وعلى نفس المنوال فيما يخص مشكلة علاقة الباحث بموضوع بحثه (الموضوعية / الذاتية) في العلوم الإنسانية والاجتماعية، نلحظ أنها تعود هي الأخرى في كل مرة لتقف في ساحة الصراع بين مؤيد للموضوعية ومنكر لها .

وهو ما يجعلنا نخلص إلى أن الموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية تختلف مفهوما وتطبيقا عن مثيلتها في العلوم الطبيعية، وأن عدم قدرتنا عن تجاوز ذواتنا ورغباتنا وقيمنا وميولنا واعتقاداتنا في دراسة الموضوعات الإنسانية هو بحد ذاته اختلاف يميز هذه العلوم عن العلوم الطبيعية.

---

27 سمير جواق ، المرجع السابق، ص 4.

وعليه فإنه يتوجب على المؤرخ كباحث أن يميز بين واجب الوصف المفروض عليه من الوقائع ذاتها وبين مسؤولية إصداره لتلك الأحكام الاحتمالية التي تصدر منه باعتباره إنسانا يحاول تفسير الأحداث والوقائع التاريخية.

ليبقى المنهج التاريخي (البحث التاريخي) هو السبيل الوحيد الذي يمكننا من تناول تاريخ الأمم والوقائع والشخصيات التاريخية ودراستها بطريقة علمية، وبالنموذج التاريخي المعتمد حاليا من تحديد للمشكلة وجمع للمصادر والمعلومات ونقدها وتحليلها، وصولا إلى تفسير النتائج وكتابة التقرير النهائي.

الأمر الذي يجعل المنهج التاريخي مدخلا علميا هاما لكل العلوم ـ وحتى العلوم الطبيعية منها ـ فلا يمكن لأي باحث أن ينطلق في موضوع بحثه إلا إذا توفرت لديه معرفة ولو مختصرة عن تاريخ الموضوع المراد دراسته.